عبد الرحمن بدوى

دراساته فى الآداب الغربية

ماهر شفيق فريد

obeikandl.com

obeikandl.com

كالمتنبى، ملأ الدنيا وشغل الناس. وكالمتنبى انقسم الناس فى شأنه فريقين أحدهما يرفعه إلى أعلى الذرا، والآخر لا يكاد يقر له بفضل. من الفريق الأول د. طه حسين الذى اعتبره أول فيلسوف مصرى، ومن الفريق الثانى جلال العشرى الذى عده مترجما لا مسرحيا، ود. على جواد الطاهر الذى أخذ عليه أخطاء فى تحرير الكتاب التذكارى المهدى إلى طه حسين فى عيد ميلاده بأقلام تلاميذه وأصدقائه (دار المعارف)، ود. عبده عبود الذى كتب عن أخطائه فى الترجمة من الألمانية، ويظل بدوى بين هذه الأقطاب المتقابلة ينام ملء جفونه عن شواردها، تاركا للخلق أن يسهر جراهاويختصم. فإذا تكلم قال أشياء من قبيل: «الشعر الحديث تفاهة وأنا الفيلسوف الوحيد»! (انظر ببليوجرافيا الكتابات عن بدوى من قلم كاتب هذه السطور فى هذا المجلد).

كالمتنبى، كان مسرفا فى الاعتداد بذاته، حتى أنه فى موسوعته الفلسفية التى كسرها على جزء ين لم يورد أى فيلسوف عربى سوى نفسه وأستاذه الشيخ مصطفى عبد الرازق. وأغلب الظن أن هذا كان وفاءً منه للأستاذ من ناحية، وشعورا من ناحية أخرى بأنه قد أصبح من عالمنا على مسافة مأمونة، فى رحاب الله، بحيث لا تُخشى منه منافسة!

ترجم بدوى من الألمانية أعمالا لجوته وشللر ودورنمات وبرخت، ومن الإنجليزية لبيرون، ومن الأسبانية لثرفانتس ولوركا، ومن الفرنسية ليونسكو، ولا مجال هنا لتقييم هذه الترجمات فهذا يحتاج إلى فريق عمل من المتخصصين فى آداب هذه اللغات، ولست مؤهلا للاضطلاع بهذه المهمة. حسبى أن أذكر أن ترجمته لقصيدة بيرون الطويلة «أسفار اتشيلد هارولد» لا تلتزم بالأصل فى بعض المواضع، وتخطئ فهم النص فى مواضع أخرى، وإن تكن قليلة، ثمة مقالة ضافية عن قصيدة بيرون هذه ، ومع ترجمة مقتطفات منها، بقلم الدكتور نظمى لوقا فى مجلة «تراث الإنسانية» المجلد السابع/ ٤ (١٩٦٩). وقد عارضت الترجمتين على الأصل الإنجليزى فوجدت ترجمة لوقا أدق من ترجمة بدوى وأصدق تمثيلا لتقنيات بيرون

الشعرية.

وعند الحديث عن دراسات بدوى فى الآداب الغربية ينبغى أن نأخذ في الاعتبار كتبه الفلسفية لا الأدبية فحسب. إذ كثيرا ما تتقاطع دروب الأدب والفلسفة فى عمله. وثمة قطع أدبية رفيعة فى دراساته عن أفلاطون وأرسطو وكنت وهيجل وفشته وشلنج ونتشه واشبنجلر وشوبنهور وبرجسون، كذلك ينبغى ألا نغفل كتبا إبداعية من قبيل «هموم الشباب» و «الحور والنور» فضلا عن ديوان «مرآة نفسى»». وتكاد بعض صفحات «الموت والعبقرية» أن تكون أدبا خالصا، بينما تدنو الفصول الخاصة بأدنامونو وكامى وسارتر من كتابه العظيم «دراسات فى الفلسفة الوجودية» من وضع الأدب ، وهو أمر طبيعى حيث إن هؤلاء الثلاثة كانوا أدباء إلى جانب كونهم فلاسفة.

فى «الموت والعبقرية» يعالج بدوى" جيته وهيلدرلن وستيفن اتشفيج وماريه بشكرتسف ونوڤالس وموريس دى جيران .

وفى «الفلسفة الوجودية» يعالج بدوى - غير من ذكرت - كيركجور وهيدجر وكارل يسبرز وأورتيجا وبردياڤ، وإذ يدنو فصله عن هيدجر من ختام، يطرح بدوى هذا السؤال المروع الذى لابد أنه قد أقض مضجع كل ذى فكر وحساسية: لماذا كان ثَمَّ وجُودٌ، ولم يكن عدمٌ؟ أجل، لماذا؟.

انظر مثلا إلى كلمات كيركجور التى يترجمها بدوى من «مذنب أو غير مذنب»، ٢٥ مارس صباحا، ص ٨٦ من الترجمة الفرنسية سنة ١٩٤٢ :

«آه ! لماذا كانت تسعة أشهر فى بطن أمى كفيلة بأن تجعل منى رجلا عجوزا؟' لماذا لم أولد فى النعيم؟ ولماذا ولدت لا فى الألم وحسب، بل وللألم؟ ولماذا تفتحت عيناى لا لترى الهناء، بل لتغوص فى دنيا الزفرات، وحدها، دون أن أملك الخلاص منها؟!».

ماذا يكون هذا إن لم يكن أدبا فلسفيا من أعلى طراز؟ (ليس من قبيل المصادفة أن يكلف وجوديون كثيرون - جابريل مارسيل مثلا - بكتابة «يوميات ميتافيزيقية»). إن العذاب الرومانسى هنا - إذا استخدمنا عبارة الناقد الإيطالى ماريو پراتس -

يتجاور والقدرة العقلية على تشريح الذات والنظر إليها كأنها شخص آخر، وهذا الطابع الشخصى الحميم رد فعل من جانب كيركجور، كما هو معروف، ضد برودة الفكر الهيجلى وشموخه وتعاليه على عذابات الفرد ونشواته. وواضح أن بدوى . ولو أنه لا يذكر هيجل فى هذا الموضع ، يتعاطف مع الفيلسوف الدانمركى فى محنته بحب رجينا أولزن، وشعوره بالذنب وراثة عن أبيه، وتقلبه بين أطوار الحساسية والأخلاق والقداسة، المدارج الثلاثة للحياة الروحية.

. وفى كتابه عن «دور العرب فى تكوين الفكر الأوروبى» (قارن كتاب العقاد فى الموضوع ذاته) يتحدث بدوى عن أثر الأدب العربى فى تكوين الشعر الأوروبى، والمصادر الإسلامية للكوميديا الإلهية لدانته، وتأثير القصص العربى فى الأدب الأوروبى الحديث، وحديثه هنا أشبه بصور تخطيطية سريعة، أو مشروع بحث مستفيض ينتظر من يعكف عليه أعواما، بل عمرا كاملا.

تتوزع دراسات بدوى للآداب الغربية على ثلاثة أجناس: القصة، والمسرحية، والشعر، وفيما يلى مزيد بيان:

١ - القصة

فى كتاباته عن الفن القصصى – وهى ليست بالكثيرة – عنى بدوى ببعض قضايا عامة كما عُنى ببعض كتاب أفراد.

ففى مقالة له بمجلة «المجلة» (يوليه ١٩٦٢) يقدم عرضا لكتاب پيير بواديفر «إلى أين تتجه القصة؟» (باريس ١٩٦٢). يرى بواديفر أن القصة فى الأدب الفرنسى أخذت اتجاهين: «الأول هو الحكاية الفرنسية الكلاسيكية وتقوم على التحليل النفسى المتعلق خصوصا بمشكلة الزواج، وأول مثال لها رواية «أميرة كليف» التى شاهدنا لها عرضا سينمائيا فى مصر منذ أسابيع ، ويمثلها اليوم قصص مورياك وجاك شردون. والنوع الآخر هو قصة البحث أو الخلق وتبدأ من مارسيل پروست حتى ناتاليا سروت».

ويقول بدوى عن كفكا نقلا عن بواديفر:

«أما كفكا فرجل حافل بالقلق، يمثل عقدة أوديب. فالعالم عنده عالم مثلث: فى

القسم الأول منه كان يحيا حياة العبيد، وفى الثانى كان يحيا أبوه وحده يتحكم ويأمر وينهى ويغضب، وفى الثالث مكان أحلامه. ومن هذه التجربة راح كفكا يكتب قصصه: فالقصة عنده يجب أن تقرأ كما تقرأ الكتابة المائية فى أوراق النقد، والحوادث فيها مجرد علامات وضعها طوال القصة مخرج مسرحى اللامعقول (كذا) فالعالم لا معقول، وعلى القصصى أن يكشف عن هذه اللامعقولية فى كل الأشياء والأحياء والأهداف».

وقد أعقب جيل كفكا وبروست جيل آخر خاض غمرات الصراعات السياسية لعصرنا ومشكلاته الأخلاقية (مالرو، سارتر، كامى). وهناك الاتجاه العدمى لفردنان سيلين، واتجاه الرواية الجديدة عند ناتالى ساروت وغيرها.

ومن كتاب القصة الذين اهتم بهم بدوى الروائى السويسرى شارل فرديناند رامو (١٨٧٨ - ١٩٤٧) صاحب رواية «الرعب فى الجبل» (١٩٢٧) وهى قصة حب وآلام، قصة الكفاح الدائم بين الإنسان والطبيعة ممثلة فى الصراع بين الرعاة والجبل، الجبل الذى سينتصر دائما لأن له إرادته الذاتية وخططه الخاصة مهما فعل الإنسان».

ولرامو أيضا شعر ومقالات ويوميات وأقاصيص ، ويورد بدوى فى مطلع مقاله - من يومياته هذا المؤرخ فى ٧ نوفمبر ١٨٩٦، إذ رامو دون العشرين:

«ولدت فروقا سريع التأثر إلى درجة مفرطة،و أدنى شىء يخيفنى، وأدنى شىء يجرحنى، وإذا وجدت في مجتمع ناسا أعرفهم معرفة قليلة فإنى أشعر بالضيق وأفقد رباطة جأشى، وأحس بأنى موضوع للسخرية ، وأنا شديد الخوف من السخرية بى، على الرغم من تظاهرى بعدم المبالاة. والفكاهة حتى لو كانت بارعة بريئة تكفى لتخرجنى عن طورى. ومن هنا كان موقفى لا يحتمل، فأجول كئيبا مغموما صموتا، لا أجيب على الأسئلة التى توجه إلى ويحسب الناس أنى أبله بغير تهذيب.. ولكن الطموح يستبد بى، فعندى شعور بقيمتى وأتألم من كون الآخرين لا يلحظونها».

إنه نفس المنهج الذى يتبعه بدوى إذ يستمد مادته من التشريح الذاتى القاسى لموضوعه ، فالكاتب هنا قد انقسم إلى شخصين : أحدهما يعانى والآخر يراقب، أو

قل إن الأنا شخص آخر، بعبارة رينو، ومن قبل رينو كتب أبو العلاء العظيم :

مهجتي ضد يحاربني أنا منى كيف أحترس

٢ - المسرح

كتب بدوى مقدمات لكثير من الأعمال المسرحية التى ترجمها، وتشغل ترجمته لمقدمة «فاوست» لجوته كتابا كاملا، على حين تستغرق المسرحية ذاتها كتابين آخرين، وهو يفيد من إلمامه بعدة لغات فى توسيع رقعة إشاراته، ورؤية العمل المنقود فى منظوره التاريخى، وإحلاله فى مكانه الصحيح بين سائر الروائع.

ومن القضايا التي أدلى فيها بدلوه قضية مسرح العبث (لا أحب كلمة اللامعقول) التى شغلت الحياة الثقافية المصرية فى مطلع الستينيات، إذ نُقل عدد من مسرحيات بكت ويونسكو إلى العربية، وقدمت على خشبة مسرح الجيب وغيره، وكتب توفيق الحكيم «ياطالع الشجرة» و «رحلة قطار» ، وورط الكاتب الساخر أحمد رجب عددا من النقاد فى مسرحية «الهواء الأسود» المختلقة، وانشغلت المجلات الثقافية - «المسرح» و «الشهر» و «المجلة» وغيرها - بترجمة أبحاث مارتن إسلن وسائر نقاد هذا التيار المسرحى. وكما وقف بدوى بصلابة ضد الشعر الجديد، وقف أيضا ضد التجارب الطليعية المسرحية.

ففى مجلة «المجلة» (مارس ١٩٦٣) كتب تحت عنوان «كارثة اللامعقول» يعجب أن تغدو فرنسا - بلد العقل الواضح المتميز والوضوح الديكارتى - موطن اللامعقول فى المسرح، ولكنه يستدرك قائلا: إن العجب يزول إذا أدركنا أن دعاة اللامعقول ليسوا فرنسيى المولد: فيونسكو من رومانيا، وبكت أيرلندى، وآدامـوف روسى، وآرابال أسبانى، وجورج شحاده لبنانى، وبانجيه سويسرى، وجلدرود بلجيكى، ويفرق بدوى بين الإحساس بالعبث لدى هؤلاء الكتاب والإحساس به لدى كامى، فاللامعقول عند كامى هو فى الوجود نفسه، لا فى التعبير. أما عند أولئك فاللامعقول هو فى التعبير عن الوجود.

وإذ يرد بدوى تيار العبث إلى أصوله الفلسفية عند استيفان لوباسكو (وهو صديق ليونسكو، ورومانى مثله من الطارئين على باريس) يورد مقتطفا من إحدى

مسرحيات يونسكو لكى يدلل على «عبث» هؤلاء الكتاب، يقول بدوى: «نراه فى مسرحية «المغنية» يجرى حوارا من ألفاظ، وحروف ليس لها أى معنى، تشبه تماما تعويذات تحضير الجان فى كتب السحر والحروف العربية، يمكن تعريبه على النحو التالى:

السيد مارتان: ياهيكوش كيكوش ميكوش!

السيدة مارتان : القط نط حط بط !

السيد مارتان : كرشنالوب، كرشنالوب، كرشنالوب!

السيدة مارتان : بابا هابا جابا! البابا غابه ! البابا ما غابه!

السيد مارتان : شغل ! بغل ! بغل !

السيدة مارتان : أيو ، أيو، أيو !

السيد مارتان : ح ث غ خ ، ط هـ ش ع !

السيدة مارتان : دو ، رى ، مى ، فا ، صو ، لا ، سى !

السيد مارتان : قال القمح للكرنب ، وقال الكرنب للطعمية !

السيدة مارتان (وهى تحاكى القاطرة) : بف ، بف ، بف ، بف ، بف ، بف ، بف ، بف!!

وفى نفس «المجلة» (عدد مايو ١٩٦٣) يقدم بدوى - توخيا للعدل - الوجه الآخر للعملة، أو «دفاع اللامعقول عن نفسه» فيعرض، مع مقتطفات سخية، مسرحية يونسكو القصيرة المسماة «مرتجلة الألما » شارحا أنه فيها «يوضح موقفه من نقاد مسرحه بطريقة جامعة بين السخرية والتناقض، وقد كتبها فى سنة ١٩٥٥، وعنوانها مأخوذ من المسرح الذى عرضت فيه وهو «استوديو الشانزليزيه» بالقرب من جسر الألمانى باريس، ويذكرنا أيضا بسالفتين لها هما: «مرتجلة فرساى» لموليير و «مرتجلة باريس» لجيرودو».

هذه المحافظة الذوقية التى يتسم بها بدوى إزاء بعض الجديد - غدا بكيت ديونسكو الآن من الكلاسيات المحترمة - يشاركه فيها أساتذة فلسفة آخرون، ممن كتبوا عن مسرح العبث: زكى نجيب محمود، وفؤاد زكريا، وإن يكن من منطلق

مغاير، أكثر عقلانية وأحرص على توخى الموضوعية. وربما كان أبلغ دفاع عن التيار، نظريا، قد تجسد فى كتيب يوسف الشارونى القيم «اللامعقول فى الأدب المعاصر» (١٩٦٩). يرد الشارونى مفهوم اللامعقول إلى أصوله الفلسفية والنفسية، ويتتبع جذوره فى التراث الغربى والعربى على السواء، ويقدم تعريفا لاغنى عنه بالتجارب الحداثية لبدر الديبو عباس أحمد ومنير رمزى وغيرهم فى النصف الأول من هذا القرن، ونبرة الشارونى هادئة تخلو من انفعال بدوى واتجاهه الرؤيوى المنذر بنهاية الأشياء Apocalyptic ، إذ يكتب عن «كارثة» اللامعقول وهى على أقصى تقدير إحدى أزمات الفكر والحضارة الكثيرة فى قرننا ، وكأنما أعمال بكت ويونسكو جائحة Cataclysm من نوع الزلازل والبراكين والسيول والحرائق، إنما هى فى الحقيقة عرض لا علة.

٣- الشعر

استأثر الشعر بالنصيب الأكبر من اهتمام بدوى لأنه تاج الفنون القولية من قديم من ناحية، ولأن بدوى ذاته شاعر من ناحية أخرى (كان بدء تعرفى على شعره من خلال ترجمة ج آربرى الإنجليزية لإحدى قصائده، كما نشرت له مجلة «الشعر» تحت ولاية الدكتور عبده بدوى بعض قصائد، انظر مثلا عدد يناير ١٩٨٠). ويأتى الشعر الألمانى فى طليعة اهتماماته ولكنه لا يغفل شعر إسبانيا وفرنسا. ومن اللافت للنظر أنه لا يكاد يكتب عن الشعر الإنجليزى، ويتجاهل الشعر الأمريكى تجاهلا شبه تام، باستثناء إشارة إلى قصيدة پو «الغراب» كما سيرد.

وأهم أثر خلفه بدوى فى هذا الميدان هو كتابه المسمى «فى الشعر الأوروبى المعاصر» (١٩٦٥) الذى يجمع مقالات كتبت عبر عدد من السنين، يغلب عليها الإيجاز وما وصفته بالطابع التخطيطى Sketchy لكثير من كتاباته، ولكنها فى مجموعها تتآزر على رسم لوحة واضحة المعالم لشعر ثلاث لغات، فضلا عن تناولها عددا من القضايا النقدية، ونظريات الشعر والموسيقى لدى عدد من المفكرين.

يضم كتاب «الشعر الأوروبى المعاصر» دراسات عن رلكه فى مصر، وقصيدة

«خبز وخمر» لهيلدرلن، وترجمة لقصيدة لوركا «مرثية مصارع الثيران إغنسيو سنشت مخياس»، ومقالتين عن سان رجون پرس، وثلاث مقالات عن جان كوكتو شاعرا وناقدا، وعرضا لآراء كلوديل وسنتيانا ونتشه وشوبنهور فى الشعر، وعرضا لآراء هيجل وشوبنهور ونتشه وهرمن كوهن واشبنجلر فى الموسيقى، وحديثا عن الشاعر التعبيرى الألمانى جوتفريد بن، وهو مثل فردنان سلين الذى أسفلنا ذكره . وهو طبيب خاض غمار الحرب واكتوى بنارها وعرف بشاعتها فى الخنادق بين الفئران والبرد والرطوبة ورائحة الموت، ومن ثم غلبت على عمله نزعة عديمة قانطة سوداء، وانقشاع أوهام عن كل إيمان بخيرية الإنسان ونبله ورفعته.

وفى نهاية الكتاب أربع مقالات تعلو فيها نبرة النقد للاتجاهات الحداثية والطليعية، وتستبين محافظة بدوى الأساسية، وعناوين هذه المقالات كافية للدلالة على مضمونها: «ما هو الشعر الحديث حقا؟» «حين يصبح التجديد هراء» «الكلاسيكى المعاصر» «حتى أشد المجددين يلتزمون الوزن والقافية». ولاريب فى أن بدوى محق حين ينعى على شعابذة الدادية والسريالية تنكرهم لكل منطق، وافتقار عملهم إلى الاتساق الداخلى. إنه يهاجم هانز آرب، كما يهاجم أو يجين جومرنجر (شاعر ألمانى ولد فى ١٩٢٥)، فيترجم له قصيدة مجرد حروف وأصوات، وإن كانت تدل بعض كلماتها على معان باللغة الإنجليزية، ولكنها فى لغتها الألمانية لا تدل إلا على مجرد مقاطع وحروف وأصوات، رتبت - مطبعيا- بشكل هندسى يؤلف أقواسا ومنحنيات هكذا:

و

بو

بلو

بلو بلو

بلو بلو بلو

بلو بلو

بلو

بو

و و

سو جو

شو جرو

شوشو جرو جرو

شو شو شو و جرو جرو جرو

شو شو جرو جرو

شو جرو

سو جو

و و

لو

فلو

فلو فلو

فلو فلو فلو

فلو

ويعلق بدوى – محقا – أن فى هذا النموذج ما «يكفى للتدليل على ما عسى أن ينتهى إليه مثل هذا «التجريب» – التخريب – الشعرى الذى يزعم أصحابه أنه الغاية فى التجديد ! وياويح الإنسانية إن انتهى بها «التجديد» إلى هذه الألاعيب الهاذية!».

على أنه يسرف فى المحافظة حين يلزم الشاعر بالوزن والقافية، الوزن، أجل، على الأقل بمعنى من المعانى، أما القافية فقد سبق أن تحرر منها شكسبير ذاته فى مسرحه الشعرى وهاجمها شعراء لا يقلون قدرا عن ملتن ناظم الشعر المرسل، وغيرهما، للقافية مكان لا شك فيه فى فن الشعر – أو علمه – ولكنها ليست شرطا لازما ملزما : de rigueur

يبقى تحفظ : إنه رغم اتساع رقعة هذه الدراسات وما تتميز به من لوذعية وجاذبية فإنها تظل شذرية لا تفى بغرض القارئ المتعمق (من ذا يستطيع الآن أن

يكتفى بقراءة مقالتى العقاد القديمتين عن كانط ؟ ومع ذلك فقد كانتا هما اللتين أفضتا بمفكر كعثمان أمين إلى اكتشاف ذلك الفيلسوف). لقد جاوزنا موسوعية بدوى - كما جاوزنا موسوعية العقاد - وظهرت أجيال جديدة من الأساتذة الجامعيين والباحثين الأكاديميين والنقاد والأدباء تستطيع أن تخطو - بل خطت فعلا - أبعد مما مضى إليه بدوى . انظر مثلا إلى مقالات بدوى فى هذا الكتاب عن الشعر الألمانى الحديث وقارنها بكتاب دارس من جيل تال، يقر لبدوى بالأستاذية، هو الدكتور عبد الغفار مكاوى، صاحب كتاب «لحن الحرية والصمت» (سلسلة المكتبة الثقافية). إن مكاوى ذلك العالم النحرير والمترجم القدير والدارس المتفانى أكثر تواضعاً ، وأشد اعتدالاً، من بدوى، وهو يعادله معرفة بموضوعه، وقدرة على نقل الفكر والإبداع الجرمانى إلى لغة الضاد. ومقالة بدوى عن هلدرلن تغدو مجرد مدخل لكتاب كامل عن ذلك الشاعر الفاتن من تأليف مكاوى، صدر فى سلسلة «نوابغ الفكر الغربى» (دار المعارف). ولا حاجة بى إلى أن أذكر القارئ بكتاب مكاوى العمدة «ثورة الشعر الحديث» بجزء يه، ولا بترجماته لقصائد برخت .

أو قارن مقالتى بدوى عن سان جون پرس بمقالة ضافية كتبها متخصص فى الأدب الفرنسى - الدكتور أنور لوقا - فى مجلة «المجلة» (يونيه ١٩٦٢) عقب حصول الدبلوماسى الفرنسى ألكسى سان ليچيه المولود فى جزيرة جواديلوپ المدارية بالمحيط الأطلنطى قرب كوبا على جائزة نوبل فى ١٩٦٠، إن بدوى فى أولى مقالتيه يؤثر الطريق السهل، طريق أقل مقاومة أو ربما لا مقاومة على الإطلاق، فيعمد إلى ترجمة قوائم كاملة من الصور الشعرية عند پرس (على امتداد أكثر من صفحتين) دون تحليل ولا تعليق (يقتضى الإنصاف أن أقول إنه فعل شيئا من ذلك فى مقالته الثانية). أما أنور لوقا - أستاذ الأدب الفرنسى المتمكن - فيقدم عرضا وافيا على امتداد أربع عشرة صفحة من «المجلة» لحياة پرس وعالمه الشعرى وتطوره من ديوان «مديح» إلى «أناباز» (ترجم إليوت هذا الديوان إلى الإنجليزية) إلى «منفى» إلى «أمطار و ثلوج» إلى «رياح» إلى «وأنت أيتها البحار..» إلى «تأريخ» . وعلى امتداد هذه الرحلة الشعرية يحلل أنور لوقا مقولات الفكر البرسية، ونمط حساسيته،

وأساليبه التعبيرية في الأداء اللغوى. هذه مقالة مشبعة مشبعة على نحو لا يتحقق فى اسكتش بدوى المتعجل القصير .

وعرضا أذكر أن ثمة مقالة عن برس بقلم أستاذة أخرى للأدب الفرنسى، فقدناها فى قمة عطائها، هي الدكتورة سامية أسعد وذلك فى كتابها «فى الأدب الفرنسى» . ولكن مقالتها - إذا صح التعبير - أليفة مروضة مُدّجنة tane لا تثير فكرا ولا توقظ شعورا ، إنها أكاديمية بالمعنى السيئ للكلمة، هادئة إلى حد الفتور. ويبقى، بطبيعة الحال، أن أهم نقل لبرس إلى العربية هو ترجمة أدونيس - ذلك الشاعر الكبير والمنظر الأكبر - لـ «ضيقة هى المراكب..» على صفحات مجلة «شعر» البيروتية، وغيرها.

ويورد أنور لوقا فى صدر مقاله هذه الكلمات الملهمة لبرس عن طبيعة الشعر ووظيفته. وهأنذا أسوق طرفا منها - رغم طول المقتطف - لأنها جديرة أن تغدو دستورا لكل ناظم للقريض فى عصرنا، ونبراسا تتطلع إليه الأعين حين تعشيها الأضواء الزائفة أو تخمد بريقها ألفة العادة والتكرار.

يقول برس فى خطاب حصوله على جائزة نوبل، والضمير فى أول كلامه عائد على الشعر : «الحب بيئته، والتمرد شريعته، ومكانه كل مكان، حيثما يسبق الأمور، ومع ذلك فهو لا ينتظر جزاء من منافع العصر، إنه إذ يستمسك بمصيره الخاص، وإذ يحرص على حريته الأصيلة، واستقلاله عن كل مذهب سياسى، إنما يعرف لنفسه أنه مساو للحياة ذاتها، الحياة التى ليس عليها أن تبرر إلا نفسها، وفى ضمة واحدة، كأنها قصيدة واحدة كبيرة حية، يحتضن الشعر فى الحاضر كل الماضى والمستقبل، يحتضن ما يمس واقع الإنسان وما يفوقه معا.. الشاعر يتصل اتصالا تاما بما هو موجود، فيقدم لنا بذلك للجميع طرافة أن يعيشوا هذا العصر الهائل ! لأنها ساعة عظيمة فريدة لا تعوض، ساعة يعى الإنسان نفسه وعيا جديدا، وإلا فلمن ننزل عن شرف المثول فى عصرنا؟.. ليست المأساة فى التبذل ذاته، بل إن مأساة العصر الحقيقية هي فى هذا البون الفاصل الذى ندعه يزداد بين الإنسان الزمنى والإنسان المعنوى غير المقيد بقيود الزمن.. وواجب الشاعر - وهو الذى لم ينقسم على نفسه -

أن يشهد بيننا بازدواج سعى الإنسان؛ بذلك يرفع أمام الروح مرآة مرهفة تبادر إلى التقاط إمكانيات البشر الروحية، بذلك يبين فى حاضر العصر وضعا بشريا أجدر بالإنسان الأصلى، بذلك يوفق بمزيد من الجرأة بين النفس الجماعية فى تكتلاتها الشعبية الحديثة وسريان الطاقة الروحية فى العالم».

ويطوى المرء صفحات كتاب بدوى - راضيا أو نصف راضٍ - وقد بقيت أشياء منه في الذاكرة. مازلت حتى اليوم - وقد اشتريت نسختى فى ١٩٧٢ - تطارد خيالى بعض الأبيات التى يترجمها بدوى هنا، وذلك فى أغرب اللحظات وأبعدها عن التوقع: «الملاك هرتبيز» (كوكتو)، «قلبى زاره حرف صائب غريب» (سان جون برس)، «كان الهواء أزرق كحزمة ملابس مريض يخرج من المستشفى» (باسترناك)، «المصباح الأصلع يخلع باشتهاء جوارب الشارع السوداء» (مایاكوفسكى). هذا شعر حق، مهما أغرب وجافى المنطق الصورى أو منطق الحياة اليومية، لأنه يمس مناطق غائرة من أعماق النفس أبعد منالا من العقل.

يعلق بدوى على بيت مایاكوفسكى هنا بقوله :

«العناصر هنا متباعدة، لكنها بارعة التلفيق: فأين نور المصباح («الفانوس» الذى يضىء فى الشارع) من الجوارب؟ وأين فكرة النور من الصلع؟ ولكنها فى مجموعها تكون تشبيها رائعا يهز النفس بغرابته ومفارقاته».

وهذا حق ، والواقع أن بدوى يكون أجزل ما يكون نفعاً، وإرشاداً للقارىء، حين يجمع بين الترجمة والتعليق بما يضيىء النص المترجم وينير للقارىء زواياه وخباياه. خذ مثلا ترجمته لرائعة لوركا «مرثية إغنيسو» (للقصيدة ترجمة أخرى بقلم د. أحمد هيكل على صفحات مجلة «الشعر» وترجمات عربية أخرى) ومطلعها:

فى المساء، الخامسة !
دقت الساعة ضبط الخامسة
وأتى الطفل بفرش أبيض
فى المساء ، الخامسة .
سلة الكلس أعدوها له

فى المساء ، الخامسة.
لم يكن ثم سوى موت وموت
فى المساء ، الخامسة
أذرت الريح فراصا من قطن
فى المساء، الخامسة.
نشر الأكسيد بلورا ونيكل
فى المساء، الخامسة.

واضح هنا استخدام السطر المتردد أو المتكرر refrain ، ويوجه بدوى النظر إلى دلالته وتأثيره فيقول :

« فى هذا القسم تتردد هذه الجملة الرهيبة: «فى المساء، الخامسة!» وهي الساعة التى خدع فيها البطل الشهيد. وإنها لتذكرنا بالترديدة الرهيبة التى فى قصيدة «الغراب» لإدجار ألن بو E.A. poe الشاعر الأمريكى الغريب، ونعنى بها «كلا ، أبدا» nevermore ، وتعلو نبرة الحزن إلى القمة حين يقول الشاعر إنه لم يكن ثم سوى موت وموت، فى المساء الخامسة»! وإن هذا القسم كله كأنه قطعة موسيقية، بالغة الحزن من نوع «أحزان» شوبان».

هذا نقد ملهم، يعتمد على ذائقة مرهفة وعلم غزير لا بسائر الآثار الشعرية فحسب، وإنما بالموسيقى أيضا. ولا عجب فالشعر موسيقى سائلة، كما أن العمارة موسيقى متجمدة.

وأحدث ما أخرج بدوى من دراسات فى الآداب الغربية كتابه المسمى «الأدب الألمانى فى نصف قرن» (يناير ١٩٩٤) ، وعنوان الكتاب مضلل إذ هو لا يتناول الفترة الزمنية المشار إليها إلا فى مقدمة لا تجاوز سبع عشرة صفحة، بينما يكسر باقى الكتاب (٣٥٤ صفحة فى مجموعه) على الشاعر رلكه . ولا اعتراض على هذا فهو كتاب قيم يعرفنا بشاعر كبير، ولكن لم لا تقال الحقيقة على الغلاف؟ ربما يكون المؤلف أو الناشر قد شعرا – لأسباب تجارية – أن فرص مبيع كتاب يحمل العنوان العريض «الأدب الألمانى فى نصف قرن» أفضل من فرص تسويق كتاب عن شاعر

فرد لا يكاد يعرفه سوى قليلين.

يقول بدوى فى مقدمته: أن الأدب الألمانى فى الربع الأخير من القرن الماضى والربع الأول من هذا القرن توزعته ثلاثة تيارات رئيسية هى: النزعة الطبيعية، والنزعة التعبيرية، والنزعة الرمزية الصوفية، ويتطرق من هذا المدخل إلى دراسة شاعره المختار فيحدثنا عن حياة رلكه وشعره، وعلاقته بالأميرة ماريه تورن وتاكسس، وزيارته لمصر، وتنقلاته بين أسبانيا وباريس وألمانيا، وحبيبته المجهولة، وعمله وحياته إبان الحرب العالمية الأولى، وسفره إلى سويسرا، وانتقاله إلى قصر ميزوت الذى سيصير مقره الثابت حتى وفاته، ومرضه والعواصف التى هبت على حياته، وعلاقته الأخيرة وكانت بسيدة مصرية (نعمت علوى بك! لا أقل) ثم نهايته، حياة قلقة معذبة، لكنها أخرجت لنا «مراثى دوينو» و «سوناتات أورفيوس» الخالدة، فضلا عن «دساتير مالتى لوردز برجه»، كان رلكه كما يصفه بدوى «شاعر الفقر والموت» وقد تحتم عليه - كما تحتم على كل شاعر كبير - أن يدفع ضريبة نبوغه: أن يجرب آلام تحويل الدم إلى حبر، على حد تعبير إليوت .

يستطيع امرؤ مثلى جاوز الخمسين ويخطو نحو الستين أن يكتب اليوم عن بدوى بحياد نقدى، وتباعد يطمح إلى بلوغ الموضوعية، لكن الأمر لم يكن كذلك حين اشتريت نسختى من «دراسات فى الفلسفة الوجودية» عام ١٩٦٤، وأنا فى العشرين ! آنذاك كان كل كتاب جديد، مؤلفا أو مترجما، يقرؤه المرء لبدوى كشفا جديدا وتجربة تهز من الأعماق، من غيره - فى جرأته الفكرية - كان يمكن أن يطمح إلى إنشاء فلسفة لـ «الزمان الوجودى» تسامت فلسفة هيدجر العظيم؟ لقد تساءل «هل يمكن قيام أخلاق وجودية؟»، وألقى الضوء على الجانب الذى ظل مهمشاً ومسكوتا عنه من التراث: الإلحاد فى الإسلام، وشخصياته القلقة، وشهيدة العشق الإلهى رابعة العدوية، وشطحات الصوفى أبى يزيد البسطامى، وأبى حيان التوحيدى المفكر الوجودى فى القرن الرابع للهجرة . عبد الرحمن بدوى هو الذى قدمنا إلى نداءات نتشه النارية «عيشوا فى خطر، ابنوا مدنكم قرب بركان فيزوف . أرسلوا سفنكم إلى بحار مجهولة»، وقدمنا إلى تشاؤمية شوبنزور وكراهته للمرأة (ما أسهل أن يتحول

حرمان المراهق من الجنس الآخر إلى كراهية له!) . وقادنا إلى فكر الدورات التاريخية عند اشبنجلر ورثائه لاضمحلال الغرب، وهى نغمة حزينة أسيانة تلقى هوى فى نفس المراهق، فى غمرة عذابات الشباب الأول، وقنوطه الجنسى، ويقظة الروح والعقل والجسد فى مجالات العقيدة والفكر والجنس، كانت قراءة بدوى (إذا استعرت كلمات تنسون) عزيزة كالقبلات التى يتذكرها المرء بعد الموت، وعذبة كتلك التى يطبعها الخيال اليائس على شفاه هى ملك الآخرين، عميقة كالحب، عميقة كالحب الأول، ووحشية بكل الأسى، إيه أيها الموت فى قلب الحياة، وأيامنا التى لن تعود!

يرى المرء الآن نواحى قصور بدوى البشرية – من لى بنفس غير ذات قصور، كما يقول رينو بترجمة غنيمى هلال – وعيوب تأليفه، وافتقاره إلى التواضع ومآخذ على ترجمته، ولكنه يظل قوة فكرية فاعلة فى وعينا، بل هو قد جرى منا مجرى الدم فى العروق: المتنبى والمعرى والجاحظ والتوحيدى من الأقدمين، وطه حسين والعقاد وأمين الخولى من الجيل السابق لبدوى، ومحفوظ ولويس عوض ورشاد رشدى من جيله، ثم إدوار الخراط وأدونيس فى فترة لاحقة: هذه هى المؤثرات العربية (إلى جانب مؤثرات غربية أخطر شأنا) التى صاغت عقلى، بل حياتى. من غير بدوى كان يمكن أن ينقل إلى العربية رائعة سارتر من التحليل الفينومينولوجى «الوجود والعدم»؟ من غيره كان يمكن أن يحدثنا عن ربيع الفكر اليونانى وخريفه، وعن فلسفة العصور الوسطى، وعن المثالية الألمانية؟ من غيره كان يمكن أن يقيم باقتدار ومعرفة بالأصول جسورا بين الفكر الإغريقى والفلسفة الإسلامية والبلاغة العربية؟ بين حازم القرطاجنى وأرسطو؟ قلائل، بل أقل القليل. لهذا نظل مع كل التحفظات، وهى تحفظات مهمة وأساسية – مدينين له إلى آخر لحظة فى حياتنا.